الإشكال الهوياتي اللغوي الجزائري..أو إشكالية أزمة الإنتماء

د. قنيفة نورة
جامعة أم البواقي

ملخص المقال:

سنحاول في هذا المقال طرح مجموع إشكالات بحثية أبرزها التناقض اللغوي الإجتماعي الاّمتجانس في الكثير من مضامينه وأحيانا كثيرة الغيرّ مستوعب من قبل الفرد الجزائري في مقابل فقدان لغة تعايش يمكن اعتمادها كسبيل ومنهج للحوار الأسري والإجتماعي بعيدا عن أي تعصب أو تطرف لغوي.. بل والأخطر من ذلك حالة الصمت اللغوي المعتمدة عند الكثير من الأسر الجزائرية أمام هيمنة المضامين اللغوية الإعلامية المرئية والتي جعلت الفرد الجزائري يتجاوب معها لدرجة إعتماد بعض المفردات الدخيلة مرئيا مثل اللبنانية أو التركية في تفاعلاته الأسرية والإجتماعية....

يحدث هذا في ظل متغيرات لغوية إجتماعية أساسية أبرزها – سقوط - اللغة الفرنسية كوسيلة تعبير تاريخية – طبعا بعيدا عن أي إيديولوجيا فكرية أو ثقافية أو أي حكم مسبق- والفشل في اكتساب ثقافة لغوية عربية....تعدد اللّهجات وتنوعها في انتقالنا من مجتمع محلي إلى آخر....إفتقاد لغة تواصل مشتركة....إعتماد مفردات لغوية متناقضة بل وأيضا طبقية....المحاولة الدائمة للحفاظ على المفردات الأبوية..

فهل يمكن الحديث عن أزمة لغوية حادة في المجتع الجزائري لم تسمح لحد الآن بتحقيق ثقافة حوار أسري وإدماج إجتماعي..؟؟؟

Summury:

In this article we will try to put the total problematic notably social homogeneous linguistic contradiction in many of its contents, and often non-container by individuals, as opposed to the loss of language coexistence can be adopted as a means and a method of family and social dialogue away from any intolerance or extremism of language.. And even more seriously, the silence of language adopted in many Algerian families in front of dominance of visual media content and language that made the Algerian individual respond with implications for the degree of adoption of some of the exotic vocabulary is visible, such as Lebanese or Turkish in the family and social interactions... This happens in the light of linguistic variables to basic social, notably - the fall -of the French language as a historical expression - of course, far from any intellectual or cultural ideology or prejudice - and the failure to acquire Arab language culture.... multiple dialects and diversity in our transition from a local society to an oher.... the lack of a common language.... continue the adoption of vocabulary, and even contradictory class.... also try to maintain a permanent parental vocabulary…. Is it possible to talk about a severe crisis of language in the Algerian family did not allow yet to achieve a culture of family dialogue and thus a social?

مقدمة:

في إطار الطرح الفلسفي التحليلي للعولمة، وبنظرة خاصة أكد المفكّر العربي **علي حرب** أن العالم اليوم لم يعد كما كان عليه بعد النسق الإتصالي الجديد وثورة المعلومات.. فمع الدخول إلى العصر الكوني يبرز فاعلون جدد على المسرح أبرزهم العاملون في مجالات المعلومة والإعلاميون الذين يشتغلون في إنتاج الصورة وصناعة المشهد.. ها ثمرة الطفرات والإنفجارات والتحولات المتسارعة و كاسحة التي تضع المجتمعات البشرية أمام التحدّيات الجسيمة والخطيرة.. فإن لم نحسن التعامل معها إستحالت أزمات ومآزق وربما ترجمت مزيدا من الخسائر والكوارث.. لذلك فالأجدى الإنخراط في لغة الخلق والتداول والشراكة والإسهام. وبما أن العولمة ثمرة من ثمرات العصر وتحولاته الحضارية والتقنية فمن لا يحسن لغة العصر لا يحسن المشاركة في صناعة العالم وتفوته الفرص وتهمشه الحوادث والمتغيرات...[1]

فالعالم اليوم يعيش مرحلة متميزة من تاريخه بفعل الدمج القسري الذي تمّ للأمم المختلفة والثقافات المتباينة في بوتقة النموذج الغربي الوافد والمتفوق. ولقد كان لآليات العولمة دور كبير في التأرجح الجبري الذي تعرفه الشعوب المغلوبة اليوم بين عالمين مختلفين:عالم ترى فيه نفسها وهويتها، وآخر يغزوها ولا تجد عنه محيداً ممثَّلاً في وسائل الإتصال العاتية التي تمثل اللغةُ أُسَّها الركين... ومن المتداول بين المختصين في علم اللغة الإجتماعي أن الأمم ذات الثقافات المترسّخة لا تستطيع النهوض دون الإعتماد على لغاتها، وأن للغة دوراً بارزاً في عملية النهوض وأثراً بالغ الوقع في التنمية بمفهومها الشامل.فكلما اتسعت قاعدة استعمال لغة ما، وتداولها بين صفوف متكلميها كانوا أقدر على الفهم والإفهام، وأكثر وَعْياً بالأشياء والأفكار، وأسرع إلى الإختراع والإبتكار. ويتأيد هذا الزعم بتجارب بعض الأمم الحاضرة التي سلكت هذا السبيل في النهوض ولذا يظهر أن بين اللغة والمجتمع رحماً موصولاً وتعاضداً لا غنى لأيٍ منهما عنه..[2]

و لعل الحديث عن اللغة وأهميتها في تقدّم المجتمعات يقودنا بالتأكيد إلى طرح أبرز مؤطر ومحدّد لها والذي يتجسد في الهوية بمحتواها الثقافي المتجدّد الشكل والظهور، واعتبارها مطلبا مهما ينبغي النضال من أجله وتنمية الإحساس به وتقوية العلاقة بمحتويات تحركها من صورة جامدة – تقليدية إلى صورة عصرية من خلال استيعاب التغيرات والإنجازات التي أتت بها العولمة، وتكييفها وفق حاجاتنا ومصالحنا..[3]

يرى أحد الباحثين أن شعوب العالم موحدة من موقع كونها بشرا لهم آمال وأحلام ومشاكل، ولكنها متمايزة من موقع هوياتها. بعبارة أخرى، إن للانسان هوية خاصة به تميزه عن غيره، وبالتالي «هوية» خاصة بالمجموعة البشرية التي هو أحد أعضائها وتميزها عن بقية المجموعات البشرية الأخرى في هذا العالم. من جهة أخرى، إن هذه «الهوية» هي الرباط الرئيسي الذي يجمع ويوحد أناس هذه المجموعة.. و ي الثقافة الغربية عرّف أحد الباحثين الهوية بأنها تنظيم الإنسان لعلاقاته وخصائصه ورغباته وتوجّهاته السابقة واللاّحقة والتي تعبر عن ذاته وعن إتجاهاته نحو الناس. وعرفها باحث آخر بأنها ليست عملية عقلية قائمة بذاتها، وإنما هي أيضا نتاج التفاعل بين الإنسان والمؤسسات الاجتماعية التي يعيش في إطارها كالأسرة والطبقة الإجتماعية والمجموعة الإثنية والمحيط الثقافي والأيديولوجي ويعرفها باحث ثالث فيقول إن الهوية إحساس الإنسان بالإستمرارية عبر الحياة وإحساسه بالولاء والإنتماء إلى فئة ما أو فكرة ما..[4]

هذا يعني أننا أمام أكثر وأهم محددات الوجود الإنساني الإجتماعي، ولعل الإشكال الأخطر حين نبحث عن هوية ثقافية لغوية تمكّننا من التواصل الإجتماعي الإيجابي داخل المجتمع نفسه، وأمام التغيرات العولمية الإتصالية المحيطة بنا والتي تدفعنا إلى تحقيق تناسق وتكامل إتصالي هوياتي إجتماعي متفق عليه لاسيما وأن تحقيق ذواتنا الإجتماعية من أكثر المسائل أهمية في ظل العولمة الإتصالية الحالية المهيمنة بشكل أو بآخر علينا.. مما يقودنا إلى التأكيد على الحاجة إلى تحديد هوية لغوية جماعية واجتماعية... فاللغة في اعتقادنا من أهم العناصر التي تميز الكائن البشري إن لم نقل أنها أبرز سمة تصنع تفرد البشر عن باقي المخلوقات، وقد بات معلوما في الأوساط العلمية إلى أي حد تؤثّر على الفكر ومن ثم على السلوك.هي أيضا نظاما معقدا من الرموز التي تحمل في طياتها مختلف المعاني والمدلولات التي تساعد أي باحث على الولوج إلى عمق الثقافة والبيئة الاجتماعية، والتي تعكس في النهاية مجموع حقائق إنسانية..

يضيف أحد الباحثين وبعبارة موجزة أن معظم المقولات اللغوية السائدة حالياً تؤكد أن العالم مصنوع بشكل ما من اللغة..[5]

تعد اللغة نوعاً من أنواع التعبير الكلامي الذي يؤديه الإنسان، ساعياً بواسطته إلى الفهم والإفهام وإلى التوصيل والأداء. وتتخذ اللغة الإنسانية حيزاً مهمّاً في منظومة التوا ل المتعدد الأقنية التي تربط المجتمعات البشرية في عصرنا الحالي. واللغة بأشكالها الإشارية والمنطوقة والمكتوبة تمثّل الوسيلة الأقدم للتواصل البشري..فهي في نهاية المطاف صورةَ المجتمع، تعكسُ أولياته وكيفيات تعبيره عن ذاته، وطرائق فهمه لعلاقته بأفراده وبالآخرين وبالعالم. بيدَ أنها لا يتصلُ معناها الشمولي بالمجتمع وبصورته عن نفسه فحسب، بل يتصلُ أيضاً بالتطور الثقافي الإجتماعي ووعي هذا المجتمع بذاته ومهماته وأولوياته، وتَوقِهِ إلى الاتصال بالحضارات الإنسانية الأخرى والتفاعل معها دون التخلي عن الخصوصيات الثقافية لأبنائه..[6]

و تدعيما لذلك نضيف مقولة الأنثروبولوجي الأمريكي **ميسيا لاندو** أن اللغة ليست مجرد وسيلة لتوصيل

الأفكار عن العالم، بل أداة لجعل العالم موجوداً في المقام الأول... ليس الواقع ببساطة "معاشاً" أو" "معكوساً" في اللغة، بل هو بالفعل محدَد بواسطة اللغة...."[7]

إذا كان الفرد في المجتمع البشري يكتسب موقعه وسلطته من قدرته على تكوين الرموز وبراعته اللغوية ونسبة تأثره بقيم الجماعة، حيث يكون لطلاقة التعبير وأنواع الجمل التي يفتتح بها الحديث دور في تكريس قيمته الإجتماعية؛ فإن ذلك كله يعود إلى أن نظام الرموز الإتصالية واللغة على وجه الخصوص لها دوران أساسيان متضادان كشفت عنهما العلوم الحديثة التي تعنى بماهية هذه الوسائل ووظائفها وآثارها أبرزها ربط تطوّر الوعي البشري بتنمية عقل الإنسان التي ساهمت فيها قدراته الفريدة اللغوية والرمزية، واستخدامه للأدوات، وقدرته على تخزين المعلومات بتسلسل تعاقبي، وأنه لم ينتج عن ذلك خلق الحضارة فقط بل التاريخ أيضاً...[8]

هذا يعني أن للغة أهمية كبيرة جدا، بل وقدرة على الخلق والإبداع والتواصل الفكري والإجتماعي، غير أنه وأمام ما تقدم طرحه عن أهمية اللغة، وفي الوقت الذي اعتمدت فيه العولمة الإعلامية وسائلها الإتصالية لنشر لغتها، بل وأمام القدرة الإعلامية للدول والمنظمات الداعية لفرض ظاهرة العولمة بالعمل على استثمار منجزات ثورة الإتصالات والتقدم التكنولوجي في نشر ثقافة واحدة وبقوالب محددة عمودها الفكر الإستهلاكي لا نزال نعيش صراعا لغويا أساسيا مبدأه رفض الإختلاف اللغوي لدرجة الآتعايش، التعصب للهجة دون الأخرى، التطرف اللغوي، وغيرها من المظاهر السلبية...

إننا ندرك جيدا التعددية والتنوع الثقافي اللغوي وتأثيراته على حياة الفرد الجزائري، لكن وفي مقابل هذا التنوع نحن فعلا بحاجة إلى توحيد مفرداتنا حتى نتواصل إيجابيا بعيدا عن أي أفكار أو إتجاهات إيديولوجية غالبا ما تكون ردود أفعال شخصية أو مصلحية لم تتمكن من فرض مقاييس لغوية موحدة بقدر ما ساهمت في نشر ثقافة الإختلاف اللغوي، وربما أيضا وفي أحيان كثيرة ثقافة التطرف والتعصب مثلما هو ملاحظ واقعيا متجاهلة خطورة الوضع في ظل عولمة القرن الواحد والعشرين..

هذه الحالة الإجتماعية الثقافية في بعدها اللغوي تحتاج منّا إلى أكثر من وقفة تأملية تحليلية، لذا فإن محاولتنا هذه نعتبرها نقطة انطلاق لعرض أهم الإشكالات التي تمّ الوصول إليها من خلال ملاحظاتنا الدائمة والمستمرة لواقع لغوي جزائري خاص، ويبقى المجال البحثي في هذا الموضوع بالذات مفتوحا للطرح والمناقشة والتحليل نضرا لأهميته الكبيرة من جهة، ولخطورة تأثيراته المتعددة الأبعاد لاسيما الأيديولوجية منها من جهة أخرى...

الإشكال الأول::الواقع الجزائري ومؤشرات انفصام الذات اللغوية....:

فلأن اللغة الأداة الرئيسية التي تمكّن الكائن البشري من تنظيم تواصله بل وإنتاجه، كما تشكل أيضا قناة مقتصدة لنقل المعارف والأفكار والمشاعر، ووسيلة مثلى لحفظها ونقلها جيلاً بعد جيل. زد على ذلك أنها تعد معياراً للتنمية الاجتماعية والعلمية، فإننا نضيف قوة اللغة في تحقيق إدماج إجتماعي وهو نقطة الإنطلاق في تحليل هذا الإشكال ذلك أن طرح البعد اللغوي التواصلي الجزائري للنقاش قد يقودنا إلى التأكيد على أن الخطاب اللغوي في الجزائر حسب أحد الباحثين " قد دأب في تأسيس أطروحاته على نوعين رئيسيين من الإعتبارات: إعتبار الحداثة واعتبار الهوية، فالخطاب الناطق بالفرنسية يستند بصورة جوهرية على المطلب الأول، بينما الخطاب الناطق بالعربية يؤسس مشروعيته على المطلب الثاني من غير أن ينفي عن نفسه طابع النجاعة، أي الحداثة. أما النظر إلى اللغة بوصفها عنصرا أساسيا للإدماج الإجتماعي للأفراد فقد ظل طرحا غائبا في هذا النقاش..[9]

و لعل هذا الواقع اللغوي هو ما دفعنا إلى محاولة طرح هذا الإشكال لاسيما وأن ملاحظاتنا الكثيرة على إشكالية التواصل اللغوي بمضامينها المتنوعة، المختلفة، الغريبة، وربما أيضا الإغترابية تدعو فعليا إلى تحليل مشكلة الإدماج الاجتماعي عن طريق لغة مشتركة في الفضاء الجزائري الذي يتفاعل فيه الأفراد مع الآخر أو الآخرين المختلفين في الكثير من الرؤى والمحددات اللغوية بحكم الانتماءات الأسرية والاجتماعية والمجتمعات المحلية...

فلأن اللغة الوسيلة الوحيدة لتواصل الفرد الجزائري مع الآخرين على اختلاف بيئاتهم، ولأنها أرقى مصادر القوة والتفرّد، هذا بالإضافة إلى اتساعها للتعبير عن المكنونات الداخلية والتجارب والمعارف، فإننا نعتبر المفردات اللغوية في حياة الفرد الجزائري مكونا أساسيا لشخصيته ولذاته الاجتماعية انطلاقا من مجموع الصور الذهنية التي يكتسبها في طفولته عن مفاهيم الآخر أو

المجتمع بشكل عام... ولعل الأسرة أو العائلة الممتدة هي أول من يوكل لها هذا الدور الهام والأساسي المشكّل للهوية الثقافية للفرد، وباعتبار اللغة أحدى مكوناتها، فهذا يعني أنه يعيش مرحلة تأسيس لغوي هوياتي يُرسّخ من خلالها إنتماءه الأسري والاجتماعي بمعية مجموع نشاطات تربوية تنشيئية أساسها لغة مشتركة تقود في النهاية إلى تحديد هوية الفرد الثقافية...

لقد طُرحت - ولا تزال- إشكالية التعددية اللغوية في الجزائر – ليس بالمعنى العلمي لكلمة اللغة فقط، وإنما أيضا بالمعنى الإجتماعي المعتمد في التفاعلات الإتصالية الأسرية والإجتماعية- في الوقت الذي أجمع العديد من الباحثين على فكرة مؤداها أننا فعلا نعيش وضعا لغويا متأزما عاجزا عن مسايرة التقدم الحاصل في ظل العولمة، وفي ذات الوقت عاكسا لأفراد متأزمون هوياتيا لم يتمكنوا لحد الآن من تحديد معالم ذواتهم الإجتماعية ومسايرة التغيرات الإتصالية العالمية... ولعل الأخطر في كل هذا العجز الحقيقي عن التموضع ضمنها – أي التغيرات – ليعيشوا حالة انفصام لغوي أدى إلى صراع إجتماعي لغوي دائم التواجد بين ما يريدون...، ما يطمحون إليه...، وما يريده الآخر المختلف عنهم لغويا..

هو الرهان اللغوي الذي فشل المشروع السياسي في كسبه بعد الإستقلال ليتحول إلى أزمة لغوية حقيقية جعلت من التواصل اللغوي شتاتا من المفردات التي تُجمع من هنا وهناك، بل وأحيانا كثيرة مزيجا من المفردات اللغوية للعربية، الدارجة، الفرنسية، واللهجات البربرية لدرجة جعل التواصل اللغوي في الكثير من المناطق الجغرافية محدودا لعدم القدرة على استيعاب المفردات اللغوية، في مقابل المحاولة الدائمة للبحث عن المشترك لغويا عند البعض، الهيمنة اللغوية في نضر الآخرين، والإغتراب اللغوي لدى البعض الآخر..لنصل إلى عجز لغوي وبالتالي ثقافي غالبا ما يطرح في شكل أزمة هوية ثقافية عكست عدم القدرة على تحقيق ما يصبو إليه المجتمع من تقدّم فكري كغيره من المجتمعات الأخرى...

و لعل العجز الحقيقي في تشكيل هوية وطنية جزائرية موحدة اللّغة مردّه بالأساس إلى عدم الإتفاق الجماعي على تحديد أيّ اللغات أكثر تماشيا مع هذا الزخم اللغوي المكتسب، والتقوقع في الإصرار على الأنا اللغوية الخاصة في الإتصال والتعامل لتصل حد النرجسية...فبين العربية والعروبيون، الفرنسية والفرنكفونيون، البربرية والبربريون، تمزقت الذات اللغوية الجزائرية ونُعتت بأبشع الصفات في مواقف كثيرة أبرزها صفة البربرية barbare و الهمجية..

و هو نفس الرهان الذي كثيرا ما عمدت النخبة السياسية على قوقعته في مبدأ متفق عليه جماعيا- وربما سياسويا أكثر- وهو: "اللغة العربية..لغة الأمة الجزائرية" والذي أخذ تجسيده واقعيا طابع الذات السياسية- الإجتماعية – التربوية المنتقمة أكثر من الذات الواعية بأهمية التعددية اللغوية وقدرتها على تكوين شخصية وطنية فاعلة، ليتحول في اعتقادنا إلى مسبّب رئيسي في عدم القدرة على إتقان - بل وحتى اكتساب- الأبجديات اللغوية العربية السليمة التي لا تزال متعثّرة تربويا وتعليميا وبالتالي إجتماعيا وثقافيا...، بالإضافة إلى فقدان الأبجديات اللغوية الفرنسية، وأخيرا التعصّب وربما أيضا التطرّف اللغوي البربري..

لقد عرفت اللغة العربية إنتشارا تدريجيا في المجتمع الجزائري منذ القرن السابع بعد الميلاد... تزامن هذا و انتشار القبائل العربية إلى شمال إفريقيا، كما بقيت نسبة معتبرة من القبائل المحلية غير معنية، وكما هو معلوم أيضا توطّن العرب بالمدن و الساحلية تاركين المناطق الجبلية بالنظر إلى تضاريسها الوعرة والعراقيل المجالية التي كانت تفرضها هذه الأخيرة..لتعرف بعد ذلك انتشارا واسعا بعد الاستقلال، وتم التأكيد على ترسيمها في مختلف المواثيق الجزائرية، وأصبحت اللغة الرسمية والوطنية والوظيفية في مجالات عدّة، وعليه فهي غير مستعملة كوسيلة اتصال في الخطاب اليومي..

إن الواقع السوسيولغوي يُظهر أن العربية المحلّية هي اللغة الأم لأنها ممارسة من طرف الأغلبية الساحقة، وعليه فلها تواجد خاص ومكانة خاصة في الإنتاج الثقافي، فهي حاملة للقيم المجتمعية وحاضرة في كل زمان ومكان، ومزودة بمكانة رمزية.. ورغم تداولها في الخطاب اليومي العائلي والمحلّي إلا أنها مُرتّبة في أسفل الهرم اللغوي..[10]

أما الدارجة فهي مخصّصة للإستعمالات الشفهية المقولبة langue stéréotypée وهذا ما يستدعي التمييز بين العربية المستعملة في المجال الرسمي والأخرى المستعملة في الخطاب اليومي العادي.

وصف **جون لوتز** اللغة على أنها "الرابط الذي يكوّن المجتمع" لنتساءل عن وظيفة اللغة الدارجة في إطار هذا المنظور باعتبارها الأكثر تداولا في مختلف جهات الوطن فيما يخص الوظائف الشفوية للغة، ولكونها تتميز بسهولة الاكتساب، وبالتالي القابلية

على الانتشار، مما جعل منها ذلك أداة اتصال مشترك بين الجزائريين..فإذا سلمنا بأن الإدماج الاجتماعي هو أحد وظائف اللغة، فإن هذا الدور يضطلع به الدارجة أساسا حسب الباحث إبراهيم سعدي فيما يخص المجال الشفوي المعتمد خارج نطاق المؤسسات الرسمية بمختلف أنماطها. لكن هذا يعني أيضا أن وظيفتها التواصلية تقتصر على فضاء التبادل اللغوي العام، أما على مستوى الفضاء الخاص، أي النخبوي، فلا تلعب أي دور..فاللغة الدارجة ظلت دوما مقصاة من الخطاب السياسي والديني والإعلامي بالرغم من أنها تعبّر عن الخصوصية الجزائرية أحسن من غيرها. ومن نافل القول التأكيد بأن الأمر لا يتعلق بدعوة إلى استعمال هذه الأخيرة كلغة الكتابة والعلم والمعرفة، فوظيفتها تقتصر على المبادلات الشفوية أساسا، وهي مبادلات ذات أهمية على أكثر من صعيد، لكنها للأسف مجهولة أو غير معترف بها..[11]

وعلى غرار الدارجة واللغة العربية إنتشرت اللغة الفرنسية في مرحلة الإستعمار الفرنسي، وتركزت بالخصوص في منطقة القبائل الكبرى حيث احتلت مكانة مميزة بعد الإستقلال، ولا تزال تستعمل كلغة شفهية لدى بعض الفئات الإجتماعية..أما الأمازيغية فمكانتها خاصة في الواقع السوسيولغوي لأنها متنوعة حسب المناطق المنطوق بها (منطقة القبائل، الشاوية، الميزاب، توارق الصحراء) معتمدة كآداة اتصال لفترة طويلة..[12]

غير أن نفس هذا الواقع اللغوي المختلف والمتنوع يعكس تواجدا لغويا لا متجانسا، ففي الوقت الذي تصر فيه الذات الجزائرية المعرّبة على تعليم الطفل اللغة العربية - بدءا من كلمة **أمي– أبي**، ثم الإصرار على مواصلة التفاعل اللغوي في المسجد على يد أبرز الجمعيات هيمنة في هذا الإطار وهي جمعية "الإرشاد والإصلاح" (ذات توجّه سياسي إسلامي) خوفا على الهوية اللغوية والدينية للطفل، والتي ارتبطت بشكل أساسي باللغة العربية وحتمية ممارستها، ورفض أي لغة مغايرة لاسيما الفرنسية لدرجة أنه يمكن وصف هذا الموقف التربوي بالإيديولوجي أو بالأحرى المتعصب من خلال النضرة للغة العربية في بعدها المعياري، وبأنها قادرة على الوفاء باحتياجات أبنائهم في جميع قطاعات الحياة، وأنّ لديها من الخصائص ما يجعلها مرنة، وهكذا في ظل الشعور المتزايد عن أصحاب هذا الموقف بشدة الهجمة وشراستها وتسارع عملية المسخ، تزداد نظرتهم هذه تطرفاً بمرور الأيام وتطالب بالتشبث باللغة العربية إذ هي الضمان الأوحد للحفاظ على الهوية..

فإنه وفي مقابل هذه العصبية اللغوية يقف على النقيض تماما فئة المفرنسين الرافضين لهذا الواقع العروبي والمتمسكين بالذات المختلفة، المتميّزة.. وربما أيضا المؤدلجة التي تعتمد في تواصلها الأسري والإجتماعي على مفردات لغوية فرنسية في تعليم الطفل بدءا من papa وmaman، ثم الإنتقال إلى المرحلة الثانية المتمثلة بالخصوص في حديقة الأطفال jardins d'enfants لتحاول قدر الإمكان مواصلة تعليمه أبجديات اللغة الفرنسية حتى التأكد من نطقها على الأقل وتعلّمها لاحقا..

إن استعمال اللغة الفرنسية عند هذه الفئة يمتثل حسب ما يبدو إلى عاملين: من جهة الحاجة إلى الإتصال، ومن جهة أخرى الميل إلى الإنفراد أو أكثر من ذلك إلى التميّز الإجتماعي، إنها تتغير حسب الأوساط..هذه الوضعية الشفهية للفرنسية أدى بها إلى التأثير على العربية الدارجة والأمازيغية.."[13]

ضمنيا يعتبر الكثير من أصحاب هذا الموقف أن العربية لغة ينبغي أن يقتصر دورها على الدين والمناسبات الإجتماعية بشكل عام، فبحكم طبيعتها لن تفي باحتياجات العصر العلمية التكنولوجية؛ خاصة أن المصطلح العلمي لا يعرف لغة معينة ومن ثم لا يهم مصدره. كما أن استخدامها في التعليم قد يؤدي إلى منع الطلاب من إتقان لغة أجنبية مما يقيم بينهم وبين العلم والحضارة الحديثين حاجزاً قوياً. زد على ذلك أن حركة التطور السريع للعلوم وللمعارف المصحوبة، وبطء حركة التعريب تجعل الوفاء بكل ما يحتاجه الطالب والمدرّس من مصطلحات أمراً غير ميسور، ويزداد الأمر سوءاً إذا ما أضفنا إلى ذلك فوضوية وضع المصطلح وتباينه من قطر إلى آخر ومن باحث لآخر، وما يؤدي إليه ذلك من بلبلة وتشويش ذهن المعلم والمتعلم...

و قد يعود السبب في تواجد هذا الواقع اللغوي الخاص إلى أن الثنائية (عربية/فرنسية) المنجرّة عن تدمير البنية الثقافية الأصلية للمجتمع الجزائري من جراء الوجود الكولونيالي هي أساس المشكلة اللغوية المعيشة منذ الاستقلال.إنها سبب ظهور إنقسام اجتماعي على أساس ثقافي لاسيما على مستوى النخب. فالإنقسام الثقافي المتأتي من ممارسة لغوية قائمة على ثنائية تنازعية

أدى إلى اهتزاز المرجعيات المشتركة للمجتمع..لتتحول إلى أداة توتر اجتماعي وثقافي، أو إلى وسيلة منتجة لسوء الانسجام في المجتمع"[14]

يضيف في هذا الإطار الباحث الجزائري **علي غربي** "ان المتتبع لواقع الثقافة الجزائرية لاسيما في بعدها اللغوي يلاحظ أنها ذات أبعاد مختلفة فهي عربية إسلامية أمازيغية..متوسطية..إفريقية..عالمية.. ورغم ذلك تضعف فيها أبعاد معينة وتقوى أخرى على مستوى الانفتاح الثقافي والثقافف... ففي الوقت الذي ينتظر فيه الإستفادة من جميعها نلاحظ غلبة التوجه المتوسطي فيها والفرنسي بالخصوص.. ولهذا يحتدم الصراع بين معربين ومفرنسين.. والذي نستشف منه الأزمة اللغوية في الجزائر..[15]

و قد يبدو الوضع أكثر تأزما بالنسبة للذات البربرية التي تصرّ على تعليم الطفل كل الأبجديات لهدف واحد هو استمرارية تواجد مجموع لهجاتها اجتماعيا، وربما أيضا من باب التميّز الإجتماعي المسيّر بنرجسية فاعليها أو المسيّس في الكثير من المواقف بفعل تأثيرات عديدة لاسيما في بعدها التاريخي الذي تحاول من خلاله التأكيد على هويتها الثقافية اللغوية...

قد يصدق هنا الطرح العلمي القائل "بوجود مجتمعات تربى أبناؤها على الثقافة الشفاهية؛ فهؤلاء يكونون عادة إسميين، يعرفون لكلمة أو أسماء الأشياء لا الأشياء ذاتها. ويكون همّ هؤلاء الحفاظ على اللغة –الرمز– الكلمة، برسمها ومبناها من دون تغيير بدعوى الحفاظ على الهوية...لأن اللغة هي الهوية اللاّزمانية واللاّتاريخية المجردة من الفعل، ولأن اللغة هي الخاصية الحضارية، من دونها يغدو الوجود في نظر هؤلاء صفراً من كل شيء، كأن الحضارة هنا رسوم أو صياغة كلامية ومضامين تقليدية لا تاريخية الدلالة، وليست الحضارة فكراً وقيماً ونشاطاً إبداعياً وتعبيراً لغوياً يجسّد الفكر والفعل مرحلياً وأن هذا كله مجتمعاً يؤلّف معاً الإنسان أو خطاب الإنسان مع الطبيعة والمجتمع، ويمثّل طبيعة إضافية متجدّدة، ومعارف وثقافة ننظر ونتعامل عبرها مع الوجود، وترثها الأجيال للتطوير وإضافة المزيد...."[16]

هي إذا أزمة هوية لغوية حقيقية نابعة من مبدأ رفض الآخر أو محاولة إلغائه، وعاكسة لثنائية فشلت كل السياسات في تحقيقها هي ثنائية: اللغة/الهوية الوطنية في المجتمع الجزائري، لتتواصل إجتماعيا إنطلاقا من رفض مبدأ الإختلاف الذي يبدو وأنه مبدأ لغوي ديمقراطي بامتياز..

فالإختلاف حسب المفكر الجزائري "الزواوي بغورة" يؤدي حتما إلى صناعة ما يجعل الشيء المختلف مختلفا ومتميّزا، أي ما يصنع هويته، وهذا ميل لا يمكن أن يغفل عنا خطر العزلة والإنطواء أو الرفض لكل ما يشكله الآخر وخاصة في زمن العولمة والإتصالات التي يشهدها عصرنا، لذا فإن الإختلاف يجب ألاّ ينسينا ضرورة ربط الهوية بالطبيعة البشرية، لذا وجب تفكيكها إلى عناصرها المختلفة، بحيث تصبح حصيلة لعبة الإختلافات والتشابهات لا نتيجة تشابه أصلي، وبحيث تبدو المغايرة مقوّم من مقوّماتها..."[17]

تمزقت هذه الذوات المختلفة والمتصارعة، وأثّرت بشكل سلبي كبير على تعليم اللغات بالجزائر وعلى تكريس التعددية اللغوية انطلاقا من مبدأ التعايش السلمي والإدماج الاجتماعي لتنتج هوية ممزّقة فعليا وواقعيا، بل وأيضا هويات فرعية تعيش صراعا اجتماعيا متعدد الأبعاد والسمات ضحيته الأولى الفرد الجزائري الذي لم يتمكن لحد الآن من إتقان أي لغة متفق عليها اجتماعيا... ولأن التشويه وعدم القدرة على التواصل تخطّى طابع المرحلية إلى الدائم والمستمر، فإن مظاهر هذه الأزمة اللغوية أنتج أزمة هوياتية فقدت أبرز معلم في تأسيسها وهو "الخطاب اللغوي الأسري الإجتماعي السلمي" وأدت إلى حالة من الإنفصام اللغوي...

الإشكال الثاني: لغويات ثابتة رغم كل شيء...:

إن ما يميز الإنسان ويعطيه خصوصية وجودية هو القدرة التي يملكها على عقل الأشياء وإنشاء الرموز

و شبكة المعاني، فالعيش بالرموز وتوظيفها فعالية إنسانية بكل امتياز، بها يعيش الإنسان ويؤثث وجوده ويبني عالمه المادي والمعنوي، ويرسي نظام الأشياء والعلاقات بينه وبين الآخرين من الناس. ودلالة الأشياء والعلاقات لا تدرك إلاّ من خلال استعمالاتها ومما تتضمنه من معنى في حياتهم ومما تتّخذه من دلالة في متخيلهم الجمعي..[18]

إن طبيعة اللغة وجوهرها لا يمكن أن يفهما بوضوح إلاّ من خلال الدور الذي يؤديانه في حياة الإنسان و
حياة الجماعة اللغوية الواحدة، وقد عبّر أحد الباحثين المحدثين عن هذه الحقيقة بقوله: إذا أردنا أن ندرس الفكر والنتاج الفكري فالواجب أن ندرس اللّغة، و إذا أردنا أن ندرس اللّغة فعلينا أن ندرس عملها في المجتمع...

لقد تطورت الأسماء إلى رموز ونقلت المجتمعات إلى أنساق رمزية تسيطر على أطر تفكيره، وتمنع العقل من التعامل المباشر مع الأشياء بسبب إحلال تلك الأنساق بدلاً منها، وهذا ما دعا **ماكس فيبر** إلى إطلاق إحدى مقولاته الشهيرة: الإنسان ينتج رموزاً ويتشبث بها...ليشتد عود خطاب الهوية في مرحلة لاحقة ويطرح نفسه بوصفه خصوصية، على المجتمع في صيرورته أن يحافظ عليها، وعلى الآخر ألاّ يهددها أو يعمل على اختراقها، فتصبح الهوية بذلك بنية مصمتة غير قادرة على التواصل والمثاقفة، على اعتبار أن الآخر دوماً راغب في محو ثقافتها، وجادّ في العمل على تغيير حضارتها ومعالم وجودها....(19)

للغة تستجيب أساساً لضغوط المجتمع الذي يمثّل سلطة على كل من المنشئ والمتلقي ضمن القوانين السائدة في النصوص الراقية، مما تسمى "الذوق العام"، أو قوانين الإستخدام الخاضعة للأعراف في اللّغة العادية...

مجرّد إسقاط بسيط لما طرح مسبقا في إطار هذا الإشكال الخطير نقول: لغويات رمزية ثابتة إجتماعيا رغم كل شيء، تلك التي اعتمدها الفضاء الأسري – العائلي- الجزائري الذي احتفظ بمفرداته اللغوية الأبوية وبرموزها ومعانيها الاجتماعية، بل إن الاحتفاظ بها لا يزال مستمرا وبامتياز رغم التغيّر والتغيير الاجتماعيين، فحين لا تزال تنعت الفتاة المتأخرة في الزواج بمصطلح "**البايرة**" في كل الفضاءات الإجتماعية الجزائرية المتعددة اللغات الإتصالية الأسرية، بل والمختلفة... والمتاقضة.. والمتصارعة أيضا... فهذا يعني في اعتقادنا الإيمان المطلق للأسرة الجزائرية ولأفرادها بضرورة إستمرارية منتوج لغوي رمزي تقليدي ثابت يحمل طابع الحتمية التعارفية من طرف الفرد، والتداولية أيضا بمنطق لغوي

أبوي ذكوري معبّر عن مكانات إجتماعية ومراكز أفراد داخل الأسرة وخارجها..

في مقابل هذا قد نتبادل أو نتحاور في العائلة وبالكثير من المفردات التي تحمل دلالات ومعاني متفق عليها أسريا – وليس بالضرورة إجتماعيا- ولكن مفردات الجسد والجنس تحمل خصوصية مميّزة جدا يطبعها في الغالب الطابع الرمزي أو بالأحرى طابع الإستعمال المحرّم أسريا واجتماعيا لأنها من الرموز الذكورية التي لا يصح ذكرها...، بل وقد تحتاج إلى بحث خاص لطرح مضامينها وتأثيراتها النفسية والإجتماعية...

هي متخيّلات "imaginaire" لغوية رمزية مُنتجة إجتماعيا لنعيش بها، وتُبنى من خلالها رموزها وصورها عن نفسها وعن الأشياء والعالم، وبواسطتها تُحدّد أنظمة عيشها الجماعي ومعاييرها الخاصة...(20)

إنه وفي الوقت الذي نفتقد فيه إلى لغة تواصل مشتركة ومؤسّسة لإدماج إجتماعي نلمس اشتراك الفرد الجزائري في مصطلحات ومفردات لغوية رمزية إجتماعية أساسية تعكس تقليدية مضامينها وهيمنة فكر رمزي تقليدي شعبوي لا يزال يسيطر على الأذهان الفردية والإجتماعية مثل تلك المفردات اللغوية الخاصة بالهوية الذكورية أو الأنثوية، وبتمثُّلات représentations وتصوّرات ماثلة في وعي الفرد تنعكس جليا على ممارساتهم اليومية أو الخاصة.. وقد نؤكد أيضا في هذا الإطار على بعد ثان وهام جدا رغم حجم التغيرات الإجتماعية التي هزت مجتمعنا وهو إستمرارية مفردات تعكس إنتماءات طبقية أو حضرية (من المدينة أو مجتمع المدينة مثل "بلدي" "دوّاري" وغيرها من المفردات التي تحمل الكثير من الدلالات الرمزية العنيفة) رغم التكنولوجيا المؤثرة في حياة الفرد الجزائري، وبعد إقتناء الأنترت، واعتماد القنوات الفضائية كوسيلة تعبيرية أساسية متنوعة اللهجات، والمصطلحات والإيديولوجيات، وحتى المرجعيات الدينية في الأسرة الجزائرية... والتي باتت عنصرا أساسيا في الحياة الإجتماعية الخاصة والعامة، ومساهما فعّالا في تنشئة الفرد أسريا واجتماعيا...فهل يعقل أن نعيش هذا الواقع اللغوي الثابت والرافض لأي نوع من أنواع التغيير بل والموروث أيضا في ظل العولمة؟؟؟

الإشكال الثالث:لغة الآخر ومنطق العجز عن التواصل...:

، الوقت الذي تعرف المجتمعات الأخرى تقدّما إتصاليا رهيبا بلغة عالمية متفق عليها، وبمنطق لغوي إنساني إجتماعي هدفه الأساسي إيصال رسائل إعلامية والتأثير على الآخر (مهما كان الهدف المراد تحقيقه) لا نزال نعيش صراعات مفردات لغوية لم تمكننا من الوصول إلى مرحلة فهم الآخر المختلف عنا
في نفس الفضاء الإجتماعي، المتعالي، الرافض لاختلافنا، والمتعصب لذاتيته اللغوية...

ي خضم التحولات المتسارعة التي يشهدها المجتمع الجزائري تبقى الثقافة بذلك محل مراجعة ونظر متواصلين للوقوف عند ميكانزمات إشتغالها، ومحاولة تفسير عوامل تخلفها، وعجزها عن تجاوز الإشكالات القديمة كالفصل في المسألة اللغوية والتي ظنت الدولة الوطنية أنها فصلت فيها وتجاوزتها، ولكن إفرازات الجزائر الحالية تثبت العكس، حيث بقيت اللغة أداة للإنتقاء والتوظيف والولاءات المختلفة.. وربما للهيمنة أيضا..[21]

إن إشكالية اللغة تعكس صراعا لغويا عقيما، والذي يعني بالضرورة الحاجة إلى تفعيل أداة لغوية مشتركة بعيدة عن أي شكل من أشكال التزمت أو الرفض أو الإنسلاخ.. فالخطورة أننا لم ولن نتمكن من تحقيق تواصل لغوي بمنطق الثقافة اللغوية السائد الذي قدّس العربية وبامتياز، رفض الفرنسية وبامتياز أيضا، وعجز عن تعلّم الإنجليزية اللّغة العلمية العالمية المتفق عليها وبامتياز أيضا... هي إذا أزمة لغوية حادّة تعكس تناقضا وصراعا فشلت كل السياسات في تحديد أبعاده والتحكّم بها في المجتمع الجزائري لتتواصل اجتماعيا إنطلاقا من رفض مبدأ الإختلاف الذي يبدو وأنه مبدأ لغوي ديمقراطي حقيقي..لقد تمزقت هذه الذوات اللغوية الإجتماعية الجزائري، وخدمت مصالح إيديولوجية خاصة، بل وأدت إلى تواجد عجز كبير في الإلتحاق بالتقدم العلمي والمعرفي الذي يعيشه عالم اليوم إنطلاقا من فقدان القدرة على التواصل باللغة العالمية المتفق عليها، والتي باتت لغة نخبة مثقفة قليلة جدا أدركت مبكّرا أهميتها.. وهو أيضا واقع سوسيولغوي جزائري لا يزال يعكس صراعا إجتماعيا متعدد الأبعاد والسمات، ومن ثم، وإلى حد كبير فشل السياسات اللغوية في الجزائر التي تُطرح وبحدّة، والتي أدت إلى استلاب لغوي حقيقي أمام ما نلتمسه واقيا من ضعف في التواصل والتحاور، هذا الإستلاب إنعكس بالخصوص في ظاهرة الصمت اللغوي والعجز عن التعبير والحوار وتبادل الرأي، ولعل انتشار الكثير من مظاهر العنف الإجتماعي في الجزائر، وبالأشكال المطروحة حاليا، يعكس إلى حد كبير هذه الأزمة اللغوية...

وهو ما أكد عليه الفيلسوف **الزواوي بغورة** في تناوله لموضوع الهوية والعنف في الخطاب الجزائري حين أكد أن طرح الهوية الجزائرية في صورة الثوابت بالمقدّس والرمزي اللغوي والديني واستبعاد كل إمكانية لفتح الهوية على الآخر والمختلف والمغاير أدى إلى سلسلة من أشكال العنف المضاد الذي ظهر في ثمانينيات القرن الماضي وما يزال مستمرا...[22]

إن حالة الضياع والشعور بالاّنتماء لفضاء إجتماعي متجانس أبرز منتجات هذا العنف أو بالأحرى هذه الأزمة... وقد نستدعي في هذا الإطار تأكيد **ماسلو** على أن "الانتماء من أهم الدوافع الخارجية التي تدفع الفرد للقيام بأفعال معينة إرضاء للمحيطين.." **فإذا لم نعترف بذوات الآخرين المختلفين عنا لغويا فنحن إذا نعيش أزمة هوية لغوية إجتماعية جزائرية حقيقية...**

إن التفكير في الجزائر يتطلب ترقية ثقافة الإدماج دون أن يعني ذلك الإقصاء أو الانغلاق لمى الذات؛ فالمجتمع المتماسك داخليا هو وحده القادر على التفتح على الآخر في الحقيقة، ثم إن الديمقراطية لا يمكن أن تزدهر إلا في مجتمع يملك مرجعيات ثقافية مشتركة...لاسيما وأنها مرغمة على التكيف مع مقتضيات الحياة العصرية والتفتح على العالم.فقد حاولنا طرح بعض الإشكالات التي لا تزال بحاجة إلى أكثر من دراسة للتحليل المتعمق لأن الأمر في اعتقادنا ليس بالبسيط بقدر ما هو مؤثر وبشكل كبير على التماسك والإدماج الإجتماعي في المجتمع، ولأن الإيديولوجيات الخاصة والمتطرفة في الكثير من الأحيان أدت بنا إلى التأكيد أن الظاهرة اللغوية في الجزائر تحتاج إلى أكثر من دراسة لتحديد أبعادها والتحكم في تأثيراتها التي قد تكون سلبية في زمن العولمة.

مراجع المقال:

1-علي حرب:زمن الحداثة الفائقة(الإصلاح-الإرهاب، الشراكة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005
2-يحي بن البراء:اللغة والهوية وآفاق التنمية على:www.altasamoh.net/Article.asp?Id=88

3- حبيب الجنحاني:العولمة والفكر العربي المعاصر، دار الشروق، القاهرة، 2002
4- مصطلحات أنثروبولوجية:الهوية على:http://www.annabaa.org/nbanews/62/503.htm
5- دور اللغة في التنميط والتعصب للهوية، البحث منشور في مقاربات في اللغة والأدب (2) الصادر عن قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود، 2007م.
6-ناذر سراج: تجاذبات اللغة والثقافة والإنتماء على:www.altasamoh.net/Article.asp?Id=90
R. Lewin: In the Age of Mankind. New York: Smithsonian Institution, 1988, p. 80-7
8- تيرنيس ماكينا: طعام الآلهة (البحث عن شجرة المعرفة الحقيقية)، ترجمة: سمية فلو عبود، تالة للطباعة والنشر، 2005
9-د/إبراهيم سعدي:في إشكالية التواصل اللغوي:الجزائر نموذجا على:
www.arabegyfriends.com/vb/archive/index.php/t-48750.html
10- عثمان فكار:مكانة اللغات في الواقع السوسيولغوي الجزائري، مجلة دراسات نفسية وتربوية، العدد 3 دار منشورات، جامعة البليدة، الجزائر، أكتوبر 2008
11- ابراهيم سعدي، نفس المرجع السابق ذكره
12-عثمان فكار، نفس المرجع السابق ذكره
13- عثمان فكار، نفس المرجع
14-ابراهيم سعدي، نفس المرجع
15-علي غربي، الثقافة الوطنية وتحديات العولمة، في:العولمة والهوية الثقافية، مخبر علم إجتماع الإتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة، الجزائر 2010
16-ميشيل توما سيللو: الثقافة والمعرفة البشرية، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد 328، يونيو 2006
17-الزواوي بغورة:الخطاب الفكري في الجزائر بين النقد والتأسيس، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2003
18- منصف المحواشي:الطقوس وجبروت الرموز:قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول، في مجلة إنسانيات عدد 49، سبتمبر 2010، الجزائر، ص 15
19- دور اللغة في التنميط والتعصب للهوية، نفس المرجع السابق ذكره
-20 Pierre ansart:idéologie ,conflits et pouvoir, paris, puf, 1977,p 21
21-علي غربي نفس المرجع السابق ذكره
22-الزواوي بغورة، نفس المرجع السابق ذكره